الحديثُ عن التَّعليمِ الدِّينيِّ شأنٌ مُهمٌّ في ظِلِّ صُعُودِ ثقافةِ التَّطرفِ، ورفضِ الآخرِ، والنَّزعاتِ المتشدِّدةِ، شرقًا وغربًا تجاه المختلفِ في المعتقدِ الدِّينيِّ، ويُحسَبُ للأزهرِ الشَّريفِ بالتَّعاونِ مع مجلسِ الحكماءِ المسلمينَ هذا النَّهجُ الانفتاحيُّ في تناولِ القضايا الشائكةِ؛ سواءٌ في الحوارِ مع المسيحيينَ العربِ، أو في التَّواصلِ مع الغربِ، ويقفُ بالتَّأكيدِ الإمامُ الأكبرُ الدُّكتورُ/ أحمد الطَّيِّب، خلفَ هذه التَّوجهاتِ الانفتاحيَّةِ.

(١)
المقاصدُ والأهدافُ

التَّعليمُ الدِّينيُّ له غاياتٌ تَتَجَاوزُ نَقْلَ المعارفِ الدِّينيَّةِ إلي دارسٍ أو باحثٍ، لكنَّه يتعلَّقُ في الأساسِ بالتَّكوينِ العَقَدِيِّ، والثَّقافيِّ، والنَّفسيِّ للدَّارسِ والباحثِ عن المعرفةِ الدِّينيَّةِ علي السَّواءِ.

وبداهةً يمكنُ القولُ: إنَّ التَّعليمَ الدِّينيَّ ينبغي أن يَصُبَّ -أيًّا كانَ المعتقدُ الذي يُجَسِّدُه- في تعزيزِ حُريَّةِ الإنسانِ، ومواجهةِ الظُّلْمِ الاجتماعيِّ، والتَّصَدِّي للتهميشِ والفقرِ، لا يهينُ معتقداتِ الآخرين، ولا يدعو إلى التَّعصبِ والكراهيَّةِ، ولا يجتزئُ رواياتٍ تاريخيَّةً لإثباتِ أفضليةٍ في العلاقةِ معَ الآخرِ، ولا يثيرُ هَلَعًا مِن المختلفِ دينيًّا مثلما نراه لدي بعضِ المتشددينَ في الشَّرقِ والغربِ على السَّواءِ.

التَّعليمُ الدِّينيُّ يتعيَّنُ -بِحُكْمِ التَّعريفِ- أن يُوَاجِهَ تحدياتِ العصرِ، ويُمَكِّنَ المرءَ في أنْ يعيشَ حياةً أفضلَ.

(٢)
إشكالياتُ التَّعْلِيم الدِّينِيّ

يواجِهُ التَّعليمُ الدِّينيُّ إشكالياتٍ عديدةً؛ منها:

أولا: الجمودُ وقلةُ عَدَدِ المجددينَ، والشُّعورُ بالرَّغبةِ في الاحتمَاءِ بالمَواقفِ التَّقليديَّةِ، دُونَ ابتكارٍ أو تجديدٍ، والخوفُ مِن نقدِ الموروثِ.

ثانيًا: ضعفُ التَّواصُلِ مع الأجيالِ الشَّابةِ باللُّغةِ والأسلوبِ الجذَّابِ بالنِّسبةِ لهم.

ثالثًا: الرُّكونُ إلي المساجلاتِ العقائديَّةِ بينَ أهلِ الأديانِ لإثباتِ أفضليةِ معتقدٍ علي آخرَ، وهو تعبيرٌ عن أحدِ الآفاتِ التي تُعَاني منها الخطاباتُ الدِّينيَّةُ خاصَّةً في ظِلِّ تراجُعِ المشروعاتِ العامَّةِ التي تقومُ علي تضامُنِ المواطنينَ كافَّةً لتحقيقِ متطلباتِ التَّنميةِ، ومواجهةِ الأخطارِ المُشْتَركةِ، في وقتِ الأزماتِ تَعْلُو خطاباتُ الانقسامِ، وفي وقتِ التَّضامُنِ يسودُ خطابُ التَّوحُّدِ، مِن هُنا ينبغي أن

يُرَكِّزَ الخطابُ الدِّينيُّ علي المشتركاتِ وبناءِ أواصرِ التَّعاونِ، ومواجهةِ قَوَارضِ الانقسامِ، وتَعْرِيةِ عَوَاملِ التَّفتتِ.
رابعًا: الإساءةُ إلى المعتقداتِ تحتَ لافتةِ حريَّةِ التَّعبيرِ، أو انطلاقًا من الشُّعورِ بالغَلَبَةِ في مواجهةِ أصحابِ معتقداتٍ مُغايرةٍ أقلَّ عددًا، أو اللجوءُ إلي التَّعصبِ بوصفِه أداةً لبناءِ الشَّعبيَّةِ، والاستقواءِ بالجماهيرِ، واللعبِ على غرائزِهم غيرِ الناضجةِ، يُعَزِّزُ ذلك تعددُ مصادرِ الخطابِ الدِّينيِّ خاصَّةً بعد الانتشارِ الإلكترونيِّ الهائلِ لوسائلِ التَّواصلِ الاجتماعيِّ. وكثيرٌ من دعاوى الكراهيةِ الدِّينيَّةِ تُشَكِّلُ تبريرًا أو مُسَوِّغًا لمشروعاتٍ سياسيَّةٍ جامِحَةٍ تهدِفُ إلي السَّيطرةِ وهو حالُ بعضِ التَّكويناتِ المُتَطرِّفةِ دينيًّا أو سياسيًّا.
خامسًا: ظهورُ اتجاهاتٍ تُعادِي التَّعليمَ الدِّينيَّ باعتباره تعبيرًا عن الجمودِ والتَّطرُّفِ، وهو موقفٌ يعكسُ غُلُوًّا، وتَشَدُّدًا، ويظهرُ بمظهرِ المعادي للدِّينِ ذاتِه، إذا كان هناك غلوٌّ في جوانبِ التَّعليمِ الدِّينيِّ ينبغي التَّصدي له دونَ معاداةِ الدِّينِ ذاتِه، أو تعميقِ الاستقطابِ في المجتمعِ ما بينَ دينيٍّ وعلمانيٍّ، أو منحِ المتطرفين أرضيَّةً لكسبِ أنصارٍ وموالين بزعمِ أنَّ الدِّينَ يَتَعَرَّضُ لهجمةٍ من جانبِ قِوَى مُعَادِيَةٍ لَهُ.

(٣)
تَطْوِيرُ التَّعْلِيمِ الدِّينِيّ

تأسيسًا على ما سَبَقَ يمكنُ القولُ: إنَّه من الأهميَّةِ بمكانٍ النَّظرَ إلي التَّعليمِ الدِّينيِّ نظرةً فيها نقدٌ بهدفِ تطويرِهِ، وفيها تأكيدٌ علي أهميتِهِ لصالحِ المجتمعِ، وفيها أيضًا دفاعٌ عمَّا يُمَثِّلُه الدِّينُ من قِيَمٍ عُلْيَا وأخلاقٍ عامَّةٍ وفضائلَ اجتماعيَّةٍ ينبغي أن يَحْرِصَ عليها المجتمعُ، وقد أحسنَ الأَزْهَرُ صُنعًا عندما جعلَ هذه القضيةَ محورًا للنِّقاشِ في إطارِ العلاقةِ بين الإسلامِ والغربِ، حيثُ يتحوَّلُ الأمرُ إلي تبادلِ خِبراتٍ، واستشرافِ آفاقِ التَّعاونِ، وبحثِ أوجهِ تعميقِ التَّعليمِ الدِّينيِّ المستنيرِ.
في هذا المقامِ هناك عددٌ من النِّقاطِ ينبغي التركيزُ عليها:
أولا: التَّلازمُ بينَ العلومِ الاجتماعيَّةِ والتَّعليمِ الدِّينيِّ مِمَّا يُساعِدُ علي توسيعِ أُفُقِ الدَّارسينَ، ويَرفعُ وعيَهم بالقضايا الاجتماعيَّةِ، وتحدياتِ العصرِ المُتَغيرةِ.
ثانيًا: إبرازُ عددٍ من المفاهيمِ الأساسيَّةِ في التَّعليمِ الدِّينيِّ إلى جانبِ الشَّأنِ العَقَديِّ، هي التَّعدديةُ، والمواطنةُ، والتَّنميةُ، واحترامُ حقوقِ المرأةِ، وتشجيعُ التَّنوُّعِ الثَّقافيِّ، وعدمُ الاكتفاءِ بالثَّقافَةِ العامَّةِ للأغلبيةِ العدديةِ، ولكنَّ اعتبارَ

الثقافاتِ الفرعيَّةِ أيضًا مصدرُ غِنًى في المجتمعاتِ التي تقومُ علي التَّنوُّعِ، سواءٌ في الشَّرقِ أو الغربِ.
ثالثًا: التَّأكيدُ علي الحريَّةِ الأكاديميَّةِ، وإفساحُ المجالِ أمامَ الباحثينَ في الشَّأنِ الدِّينيِّ دونَ محاذيرَ مُعَوِّقَةٍ، طالما أنَّ الأمرَ لا يجاوزُ البحثَ، والنِّقاشَ الأكاديميَّ، ولا يَمسُّ معتقدًا دينيًّا، وهو ما يَسْتَدْعِي تَشْجِيعَ النَّقدِ العِلْمِيِّ للمَوروثِ والرّواياتِ التَّاريخيَّةِ والآراءِ الدِّينيَّةِ التي لم تَعُدْ تُناسِبُ العصرَ، وَحَثَّ الباحثينَ علي الابتكارِ، والخُرُوجِ مِن أَسْرِ الصُّورِ النَّمطيَّةِ الجاهزةِ.
رابعًا: العنايةُ بالبناءِ الثَّقافيِّ لرجلِ الدِّينِ أو الدَّاعيةِ علي نحوٍ يجعلُه يُقَدِّمُ الدِّينَ من أُفُقٍ ثقافيَّةٍ مُتَّسعَةٍ، يُدركُ مِن خلالها التَّنوُّعَ والاختلافَ، وَيَعِي أنَّ الخطابَ الدِّينيَّ في مجتمعٍ تعدُّديٍّ ينبغي أن يصبَّ في بناءِ التَّعايشِ، وليس بثِّ الشِّقاقِ.
خامسًا: إنتاجُ الفتَاوى والآراءِ الدِّينيَّةِ علي النَّحو الذي يُؤدِّي إلي مُحَاكاةِ العصرِ، والتَّصدِي لمشكلاتِه، وتزويدِ الإنسانِ بما يسمحُ له أن يعيشَ رُوحَ العصرِ بأفقٍ مُتَّسعٍ، وثقافةٍ دينيَّةٍ غيرِ مُنْغَلِقةٍ أو مُتَعَصِّبةٍ، بل مُنْفَتِحةٍ تُسْهِمُ في تَقَدُّمِ المجتمعِ.
سادسًا: الارتقاءُ بالمؤسَّساتِ الدِّينيَّةِ بحيثُ تكونُ حديثةً، تقومُ علي البناءِ الحديثِ للمؤسَّساتِ من شفافيَّةٍ، ومُساءَلَةٍ، وتدَاولِ معلوماتٍ، والنِّقاشِ الدَّاخليِّ، وإدراكِ أهميةِ العملِ برُوحِ الفريقِ، وتقديمِ الآراءِ الجادَّةِ حصيلةَ حوارٍ، وتوفيرِ وسائلِ التَّواصُلِ الحديثةِ بما يسمحُ لقطاعاتٍ واسعةٍ من المجتمعِ مِن أن تكونَ في حِوَارٍ دائمٍ مع هذه المؤسَّساتِ، وتداولِ الآراءِ معها، ليس مِن خلالِ تدفقٍ فوقيٍّ مِن أعلى لأسفل، ولكن مِن خلالِ مُشَاركةٍ في الرَّأي، وتَنْويرِ المجتمعِ بالآراءِ التي تُسْهِمُ في تَقَدُّمِهِ.
إذا كانَ ما سَبَقَ يُشَكِّلُ مضمونَ الخطابِ الدِّينيِّ الذي نرجُوه حتَّى يُصبِحَ الدِّينُ طاقةً تُحَرِّرُ الإنسانَ علي أساسٍ من المساواةِ والعدالةِ والاحترامِ المُتَبادلِ، فإنَّه من الضَّروريِّ أيضًا النَّظرَ إلي الأسلوبِ الذي يُستخدمُ في التَّعليمِ الدِّينيِّ، وهو ما يُطلقُ عليه ((المنهج الخفي))؛ حيثُ يَظلُّ العِلْمُ في الكِتابِ، بينما يَنْقِلُ المُعَلِّمُ قِيَمًا وثقافةً وطريقةَ تفكيرٍ للطُّلابِ قد تختلفُ في مضمونِها عن الكتابِ أو المرجعِ المستخدمِ.
وأسلوبُ التَّعليمِ لا ينفصلُ عن مضمونِ التَّعليمِ، وأخطرُ الأساليبِ الْمُعَوِّقَةِ للعقلِ النَّقديِّ هو التَّلقينُ، ولا يَعْنِي التَّلقينُ الحفظَ والاستظهارَ فقط، ولكن يعني توارثَ الرواياتِ والآراءِ من جيلٍ لآخرَ دونَ فحصٍ أو إعمالٍ للعقلِ أو ممارسةِ النَّقدِ، وهو ما يؤدِّي إلى استمرارِ الجمودِ في النَّظرةِ، وعدمِ القُدرةِ علي رؤيةِ الآخَرِ المُخْتلفِ في العقيدةِ علي نحوٍ مُغَايرٍ. قد يكونُ هذا حالَ الكثيرِ من مُنْتِجِي

الخِطَاباتِ الدِّينيَّةِ في مجتمعاتِنا العربيَّةِ، وكذلك المُتَصَدِّرينَ للخطابِ الإعلاميِّ في الغَرْبِ، الذي يعيدُ إنتاجَ نفسِ الحديثِ تجاه المختلفِ دينيًّا دونَ نظرٍ أو تمحيصٍ، وهو ما يُشَكِّلُ في ذاتِه جَوْهَرَ التَّلقينِ ذاتِهِ.